الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا حاكم مملكة حماة ودوره في الحضارة الإنسانية

د. آمال حامد زيان غانم

أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة القاهرة

اهتم بنو أيوب بالعلم وقدّروا العلماء، وأجزلوا لهم العطاء، وتقربوا منهم، ولا أدل على ذلك من قول السلطان صلاح الدين الأيوبي لأصحابه : "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بعلم الفاضل"[١].

ويعود السر وراء اهتمام صلاح الدين الأيوبي بالعلم والعلماء إلى أنه نشأ في أحضان البيت الزنكي[٢]، الذي عُرف حُكامه بحبهم للعلم والعلماء، وازدهرت الحركة العلمية ببلاد الشام في زمنهم ازدهارًا كبيرًا[٣].

والمعروف أن صلاح الدين انتقل صحبة والده الأمير نجم الدين أيوب إلى دمشق عام ٥٤١هـ/١١٤٦م، وكان له من العمر تسع سنوات[٤]، وكانت دمشق في تلك الفترة

---

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ١٩٥٢م، ج٨، ق٢، ص٤٧٢،

- يقصد صلاح الدين بالفاضل، القاضي الفاضل وهو عبدالرحمن بن علي بن حسن أبو علي البيساني الكاتب، ولد بمدينة عسقلان عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م، وتولى والده القضاء بمدينة بيسان، ولهذا نُسب إليها، برع في الأدب خاصة كتابة الرسائل، ارتبط بصلاح الدين الأيوبي، وتولى وزارته، كما استمر بعد وفاة صلاح الدين يتولى خدمة ابنيه العزيز والمنصور، توفى عام ٥٦٩هـ/١٢٠٠م، ودفن في القاهرة. انظر: سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، نشر مجلة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الهند ١٩٥١م. ج٨، ق٢، ص٤٧٢؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، بيروت ١٩٧٧م؛ ج٣، ص١٥٨-١٦٣.

(٢) أشار ابن تغري بردي إلى ذلك صراحة بقوله : " أنشأ بنو زنكي (أعني السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد) بني أيوب سلاطين مصر وغيرها ". انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة د.ت.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ص٢٨٣-٢٨٤؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني، القاهرة ١٩٨٨م، ج١، ص٦٠٧.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م، ص١٢٠؛ الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٦م، ج١١، ص١١٨.

- نجم الدين أيوب : هو الملك الأفضل نجم الدين أبي الشكر أيوب بن شادي بن مروان الكردي، تولى حكم قلعة تكريت، ثم انتقل إلى بعلبك، ثم إلى دمشق، وبعدها استقر

مركزًا علميًا نشطًا، امتلأت بالعلماء والمدارس، مما جعل صلاح الدين ينشأ في بيئة علمية صالحة، جعلته فيما بعد يحب ويقدر العلم والعلماء.

سار خلفاء صلاح الدين على نفس سياسته في الاهتمام بالعلم والعلماء، وكان من بينهم ابن أخيه تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، الذي وصفته المصادر بأنه كان له " آثار في المصافات دلت عليها التواريخ، وله في أبواب البر كل حسنه، منها : مدرسة منازل العز التي بمصر، كانت دار سكنة، فوقف عليها وقفًا كثيرًا وجعلها مدرسة، وكانت الفيوم وبلادها إقطاعه، وله بها مدرستان، شافعية ومالكية، وعليهما وقف جيد أيضًا وبني بمدينة الرها مدرسة، وكان كثير الإحسان إلى العلماء"(٥).

ويعتبر تقي الدين عمر هذا هو أول من تولى حكم مملكة حماة من أبناء البيت الأيوبي، حيث ولاه عمه صلاح الدين حكم حماة عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م(٦). واستمر حكم حماة في ذريته حتى وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي الأيوبي في ٢٢ شهر ذي القعدة عام ٦٩٨هـ/ ٢١ أغسطس ١٢٩٩م، حيث

بالديار المصرية إلى حين وفاته عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م. انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٥م.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٦-٤٥٧؛ ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م، ص٧٣-٧٤؛ العماد الكاتب الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق : محمد صبيح، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٥٥٦-٥٧٠؛ الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق : ناظم رشيد، العراق ١٩٧٨م، ص٢٣٤-٢٣٥.

- ولد تقي الدين عمر عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، وتوفى عام ٥٨٧هـ/١١٩١م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٧.
- منازل العز : كانت متنزهًا للفاطميين، تقع على شاطئ النيل، اسكنها صلاح الدين الأيوبي لابن أخيه تقي الدين عمر، ثم اشتراها الأخير من بيت المال عام ٥٦٦هـ/١١٧٦م، وعندما عزم الأخير على ترك الديار المصرية والاستقرار ببلاد الشام عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م جعلها مدرسة. انظر : ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، نشر مطبعة بولاق، مصر عام ١٣١٠هـ، ص٩٣؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نشر مطبعة بولاق، مصر عام ١٢٧٠هـ، ج١، ص٤٨٤.

(٦) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، نشر المطبعة الحسينية، مصر د.ت، ج٣، ص٦١؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية د.ت، ج٤، ص١٧٣؛ انظر أيضًا : زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة : زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥١م، ج١، ص١٥٣.

- يذكر ابن خلكان أن صلاح الدين أعطى حماة لتقي الدين عمر في ٢٣ شعبان عام ٥٨٢هـ، انظر: وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٧.

خرجت حماة من حكم البيت الأيوبي عندما عهد السلطان الناصر محمد بنيابة حماة إلى الأمير قرة سنقر المنصوري، في أوائل ذي الحجة من نفس العام[٧].

استمر حكم حماة خارجًا عن يد أبناء البيت الأيوبي إحدى عشر سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يومًا، وبعدها عادت مرة أخرى إلى البيت الأيوبي عندما أصدر السلطان الناصر محمد تقليدًا بحكمها إلى الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بن الملك الأفضل نور الدين علي في ١٨ جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/ ١٤ أكتوبر عام ١٣١٠م[٨]. ويضيف القلقشندي[٩] أن عماد الدين إسماعيل تولى حكم حماة هذه المرة " على عادة من تقدمه فيها من الملوك الأيوبيين " وذلك لأنه كانت لملوك بني أيوب الذين حكموا حماة قبله رسوم خاصة بهم، حيث ضربوا السكة باسمهم إلى جانب اسم السلطان، وكذلك خطبوا باسمهم إلى جانب اسم السلطان.

---

(٧) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٦١؛ ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، بيروت ١٩٧٠م، ج٢، ص٣٥٢؛ النويري : نهاية الإرب في فنون الأدب، ج٣١، تحقيق : السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م، ص٣٧٩.

- حكم حماه من ذرية تقي الدين عمر خمسة حكام هم على التوالي : الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر (٥٨٧-٦١٧هـ/١١٩١-١٢٢٠م)، الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان بن المنصور محمد (٦١٧-٦٢٦هـ/١٢٢٠-١٢٢٩م)، الملك المظفر محمود بن المنصور محمد (٦٢٦-٦٤٢هـ/١٢٢٩-١٢٤٤م)، الملك المنصور محمد بن المظفر محمود (٦٤٢-٦٨٣هـ/١٢٤٤-١٢٨٤م)، الملك المظفر محمود بن المنصور محمد (٦٨٣-٦٩٨هـ/١٢٨٤-١٢٩٩م). انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٨٠، ٨١، ١٢٦، ١٤٣، ١٧٣، ج٤، ص١٩، ٤١؛ انظر أيضًا : زامباور : معجم الأسرات، ج١، ص١٥٣-١٥٤.
- قرة سنقر المنصوري الأمير سيف الدين، يقول عنه ابن تغري بردي أنه نُسب إلى الملك المنصور قلاوون، رقاه إلى أن جعله أمير مائة، ومقدم ألف بالديار المصرية، ثم ولاه نيابة حماة، ثم نقله إلى نيابة حلب، ثم صار نائبًا للديار المصرية، واستمر يلي مثل تلك الوظائف إلى أن وقعت بينه وبين السلطان الناصر محمد عدة خلافات، غادر على أثرها سلطنة المماليك ولجأ إلى دولة مغول فارس، واستمر بها حتى وفاته عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠٠٢م، ج٩، ص٤٧-٤٨. وقد وصفته المصادر بأنه كان " ذو همة عالية، ومعرفة، وتدبير ودهاء "، انظر : ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٢م، ج٢، ص١٨٣؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق١، ص٣٠٥.

(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، تحقيق : حمزة أحمد عباس، أبو ظبي، ٢٠٠٧م، ج٢، ص١٣٢٢-١٣٢٣؛ أبو الفدا : المختصر، ج٤، ص٦١.

(٩) صبح الأعشى، ج٤، ص١٧٣.

أما عماد الدين إسماعيل أبو الفدا هذا فهو ابن الملك الأفضل علي بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي، ولد في شهر جمادي الأولى عام ٦٧٢هـ/ نوفمبر ١٢٧٣م بدمشق في دار ابن الزنجبيلي ونشأ وتربى بها[١٠]، وتلقى تعليمه بحماة وحلب ودمشق، فقد كان والده الملك الأفضل يتنقل بين هذه المدن الثلاث، حيث كان أخوه الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد هو الذي يتولى حكم حماة (٦٤٢-٦٨٣هـ/١٢٤٤-١٢٨٤م)[١١]، ومن بعده تولى حكم حماة ابنه الملك المظفر محمود (٦٨٣-٦٩٨هـ/١٢٨٤-١٢٩٩م)[١٢]، وخلال ذلك كان الملك الأفضل علي والد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، يقوم على خدمة أخيه وابن أخيه يعاونهما في حكم حماه[١٣].

وعلى هذا النحو نشأ عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في بيت اشتهر بالاهتمام بالعلم، فقد ورث بنو أيوب منذ أيام جدهم الأكبر السلطان صلاح الدين الأيوبي، فضيلة العلم، والاهتمام بأهله، وأنشأ الكثير منهم المدارس ودور العلم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، وتبوأ بعضهم مكانة عالية بين علماء ذلك العصر[١٤].

---

(١٠) يقول أبو الفدا أن سبب ميلاده بدمشق يعود إلى أن معظم أبناء البيت الأيوبي الذين كانوا بحماة رحلوا عنها، وهاجروا إلى دمشق بسبب هجوم المغول عليها. انظر : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٨؛ انظر أيضًا: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٤٥٩.

(١١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، نشر وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، حيدر أباد ١٩٦٠م، ج٤، ص٢٣٦.

(١٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٤١؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر المكتب التجاري، بيروت د.ت، ج٥، ص٤٤٢-٤٤٣.

(١٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢١٩، ج٤، ص١٨-١٩.

(١٤) على سبيل المثال كان جد عماد الدين إسماعيل، الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (٥٨٧-٦١٧هـ/١١٩١-١٢٢٠م) الذي وصف في المصادر بأنه كان شجاعًا عالمًا، يحب العلماء، ورد إليه منهم جماعة كثيرة، وكان في خدمته قريب مائتي معمم من النحاة والفقهاء ومن بينهم الطبيب المشهور موفق الدين عبدالسلام، وصنف عدة مصنفات مثل " المضمار " في التاريخ، و" طبقات الشعراء ". انظر: محمد تقي الدين شاهشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق : حسن حبشي، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٧-١٢؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشر دار الثقافة، بيروت ١٩٨١م، ج٣، ص٤٣٢؛ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٣٣٧-٣٣٨. كذلك جده الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور (٦٢٦-٦٤٢هـ/١٢٢٩-١٢٤٤م)، الذي وصفه ابن واصل بقوله : " كان له ميل إلى من عنده فضل ومعرفة، ورد إليه الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم (المعروف بتعاسيف) المهندس الفاضل في العلوم الرياضية فأحسن إليه وقربه، وولاه تدريس المدرسة الحنفية النورية بحماة، وكان يقترح عليه أمورًا علمية وآلات رياضية ". مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق : حسنين محمد ربيع،

والمعروف أن الحركة العلمية بمصر والشام نشطت نشاطًا كبيرًا خلال العصر الأيوبي، حيث انتشرت المدارس بكل الأنحاء على مختلف المذاهب الدينية[١٥]، واكتظت تلك المدارس بالعلماء والدارسين[١٦]، وبعد أن بسط المماليك نفوذهم على مصر والشام ساروا على نهج بني أيوب في إنشاء المدارس وتشجيع وفود العلماء إليها وإجزال العطاء لهم، ووقف الأوقاف السنية للإنفاق منها على تلك المدارس[١٧]، مما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية في تلك الفترة ازدهارًا كبيرًا.

في تلك البيئة العلمية انغمس عماد الدين إسماعيل في الدرس والعلم، حيث نال قدرًا كبيرًا من التعليم على يد عدد كبير من علماء عصره، ونبغ في كثير من العلوم[١٨]، ويذكر ابن تغري بردي أنه " حفظ القرآن العزيز، وعدة كتب، وبرع في الفقه والأصول والعربية، والتاريخ والأدب والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة "[١٩].

ويؤكد معاصره ابن أيبك الصفدي، أن "أجود ما كان يعرفه علم الهيئة لأنه أتقنه"[٢٠]، ويزيد ابن حجر على ذلك بقوله: " فاق في علم الهيئة "[٢١].

القاهرة ١٩٧٧م، ج٥، ص٣٤٣-٣٤٤؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٧٣.

وعن الأوقاف التي أوقفها بني أيوب على دور العلم ببلاد الشام وأثرها في الازدهار العلمي، انظر :

Amal Hamed Azyan : The role of Endowments in The scintific prosperity of Maqdis in Ayyubid Age, in International Research Journal of Sciences, V.I, September 2012, pp. 39-48.

(١٥) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٣٠، ٥٧٩؛ ج٢، ص٧٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٢٨.

(١٦) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة ١٩٧٠م، ص١٥٩-١١؛ عبداللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القاهرة ١٩٩٩م، ص٨٧-١٤٠.

(١٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص٣٣١-٤٠٤؛ انظر أيضًا: محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠م، ص٣٣٣-٣٧٥؛ حامد زيان : الإسكندرية منارة للعلم في البحر المتوسط عصر المماليك، مقال في كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة ١٩٨٦م، ص٢٦١-٢٦٢.

(١٨) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق : محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م، ج١، ص٣٩٧.

(١٩) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٢٠) كتاب الوافي بالوفيات: تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت ٢٠٠٠م، ج٩، ص١٠٤؛ أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م، ج١، ص٣٠٤.

- علم الهيئة : هو علم الفلك، وهو علم يبحث عن أصول الأجرام السماوية، وعلاقة

إن الفترة التي عاصرها عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، تعد فترة ازدهار لعلم الفلك في العالم الإسلامي، فبعد أن اتخذ هولاكو أذربيجان عاصمة لمملكته في الشرق[٢٢]، عهد إلى العالم الفلكي نصير الدين الطوسي بإقامة مرصد كبير في مدينة مراغة عام ٥٦٧هـ/١٢٥٩م[٢٣]، وفعل نفس الشيء تيمورلنك بعد استقراره بسمرقند عام ٧٧١هـ/١٣٦٩[٢٤]، حيث جمع حوله فريقًا كبيرًا من علماء الفلك على رأسهم الخواجة

بعضها ببعض، ومالها من تأثير في الأرض. انظر: المعجم الوسيط، نشر مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٨٥م، ج٢، ص١٠٤٣.

(٢١) ابن حجر : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

(٢٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين، نشر Cloude Cahen في :
Bulletin d'etudes Orientales, Tom XV, Paris, 1955-57, p. 175;
أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم : الذيل على الروضتين، عني بنشره السيد عزت العطار الحسني، بيروت ١٩٤٧م، ص٢٠٧.

- هولاكو خان هو ابن تولوي خان بن جنكيزخان، تولى قيادة الحملة الموجهة إلى الشرق واستطاع السيطرة على إيران وآسيا الصغرى وبلاد الشام، وبعد هزيمة جيوشه في عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، تراجع إلى إيران حيث أسس دولة عرفت باسم الدولة الإيلخانية، نسبة إلى كلمة " إيل " المغولية، بمعنى المطيع، أي المطيع للخان، توفى هولاكو عام ٦٦٢هـ/١٢٦٥م. انظر : رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، ترجمة = محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م، مجلد ٢، ج١، ص٢٣٦-٢٣٧؛ انظر أيضًا: فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م، ص٢٧-٢٨.
- أذربيجان : تقع جنوب إقليم القوقاز بين قهستان وآران، انظر : القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩م، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٢٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٤٢١.

- نصير الدين الطوسي : هو نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي، ولد عام ٥٩٧هـ/١٢٠١م بطوس، نبغ في علم الفلك، كان شيعيًا على مذهب الأئمة الاثنى عشرية، خدم الإسماعيلية بقلعة الموت، ثم انتقل بعد سقوط دولتهم إلى خدمة هولاكو خان، حيث نال قدرًا كبيرًا من احترامه، توفى عام ٦٧٢هـ١٢٧٣م. انظر : كتاب الحوادث المعروف باسم الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق : بشار عواد، بيروت ١٩٩٧م، ص٤١٦-٤١٧؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢٤) خواندمير : دستور الوزراء، تحقيق حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م، ص٣٩٢.

- تيمور (لنك): يعود أصله إلى بلاد ما وراء النهر، ولد عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م في قرية خواجا إيلغار من أعمال مدينة كش إحدى مدن بلاد ما وراء النهر، أبوه طراغاي (تارجي) ينتمي إلى قبيلة برلاس إحدى القبائل التركية المسلمة، وأمه الخاتون تكينة من = = سلالة جنكيزخان، ومعنى ذلك أن تيمور يجمع بين السلالة التركية والسلالة

علي بن المؤيد الطوسي[٢٥].

ولاشك في أن تبحر عماد الدين أبوالفدا في علم الهيئة (علم الفلك)[٢٦]، هو الذي ساعده مساعدة كبيرة في أن يؤلف كتابه في البلدان، المعروف باسم " تقويم البلدان "، كما سيرد فيما بعد.

ولم يقتصر تبحر عماد الدين إسماعيل علي علم الهيئة، وإنما " شارك في سائر العلوم مشاركة جيدة، على رأي ابن أيبك الصفدي "[٢٧]، ومن بين تلك العلوم التي برع فيها عماد الدين إسماعيل، الطب، وقد أشار عماد الدين إسماعيل أبو الفدا إلى قيامه بمداواة وعلاج ابن عمه الملك المظفر محمود حاكم حماة عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م، عندما كان محاصرًا لمدينة حموص أثناء غزوته للأرمن[٢٨]، وأصاب الملك المظفر مرض ولم يكن بصحبته طبيب، فقام أبو الفدا بمداواته ووصف بعض الأدوية له، وقد آتت هذه الوصفات الطبية مفعولاً طيبًا، حيث تم شفاء الملك المظفر، مما دفع المظفر إلى أن ينعم على عماد الدين إسماعيل أبو الفدا ويحسن إليه " على جاري عادته " كما يقول أبو الفدا[٢٩].

كذلك مما يوضح مدى مهارته في صناعة الطب، ما حدث عندما حضر إلى القاهرة وبصحبته ابنه الملك الأفضل محمد[٣٠]، فمرض ذلك الولد، فما كان من السلطان الناصر محمد

المغولية، أضيف إلى اسمه كلمة لنك أو لانج، وهي كلمة فارسية بمعنى الأعرج، وذلك لإصابته بعرج في رجله اليمنى، وتيمور كلمة تركية بمعنى الحديد. انظر: ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، تحقيق : أحمد فايز الحمصي، بيروت ١٩٨٦م، ص٣٩-٤٩؛ القرماني : أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق : أحمد حطيط، بيروت ١٩٩٢م، ج٢، ص٥٠٠.

(٢٥) يقول ابن عربشاه عن علي بن المؤيد الطوسي، إنه كان رجلاً شيعيًا ينتمي إلى طائفة الاثنى عشرية، شهمًا شجاعًا، انظر : عجائب المقدور، ص٧٩.

(٢٦) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد، بيروت د.ت، ج٤، ص٩٢.

(٢٧) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤.

(٢٨) النويري : نهاية الإرب في فنون الأدب، ج٣١، ص٣١، ص٣٤؛ مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشه، في :
Patrologia Orientalis, Tom 14, Paris 1920.
- حموص: قلعة تقع شرقي تل حمدون. انظر: النويري: نهاية الإرب، ج٣١، ص٣٤٠، هامش ٢.

(٢٩) المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٣٥-٣٦.

(٣٠) هو الملك الأفضل محمد ناصر الدين، تولى حكم حماة بعد وفاة والده عماد الدين إسماعيل أبو الفدا عام ٧٣٢هـ/١٣٣٢م. انظر: ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩، المعروف باسم الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق : هانس روبرت رويمر، القاهرة

إلا أن أمر جمال الدين بن المغربي رئيس الأطباء بملازمته لعلاج ابنه المريض[٣١]، فلازمه ليلاً ونهارًا، وتروي المصادر أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا : كان يبحث معه في تشخيص ذلك المرض، ويقرر معه الدواء، ويباشر طبخه بيده، حتى كان ابن المغربي يقول : والله لولا أمر السلطان ما لازمته فإنه لا يحتاج إلىَ "[٣٢].

وعندما يقرر رئيس الأطباء وهو الذي من شأنه الإشراف على الأطباء، والمسئول عن مستواهم الطبي[٣٣]، أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا قادر بمفرده على مداواة المرضى وتقرير الدواء وإعداده لهم؛ فهذا يعني شهادة معتمدة بأن أبي الفدا قد انضم إلى زُمرة الأطباء المهرة الذين اشتهروا في ذلك العصر.

لم يقتصر علم عماد الدين إسماعيل أبو الفدا على الفلك والطب فقط، وإنما تعداه إلى غيره من العلوم، من ذلك تبحره في الفقه، فقد درس كتاب "الحاوي" في الفقه لفقيه الشافعية المشهور أبو الحسن الماوردي[٣٤]. وقام بنظمه شعرًا[٣٥]، ويؤكد معاصروه على

٢٠٠١م، ص٤٦٤-٤٦٥.

- اعتاد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا الحضور إلى القاهرة لزيارة السلطان الناصر محمد، حاملاً معه مختلف الهدايا. انظر : ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع حواشيه محمد أحمد عبدالعزيز سالم، بيروت ٢٠٠٧م، ج١، ص١٠٢.

(٣١) جمال الدين ابن المغربي : هو إبراهيم بن أحمد، رئيس الأطباء بالديار المصرية المعروف بابن المغربي، نال حظوة كبيرة عند السلطان الناصر محمد، وكان الناصر يروي له أسراره خاصة مع حريمه، وحاول الكثير من الأمراء الإيقاع به عند السلطان الناصر لكنهم لم يفلحوا في ذلك، توفى عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م. انظر: ابن أيبك الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٢٩-٣٠.

(٣٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م، ج١، ص١٨٥.

(٣٣) يقول السمحاوي واصفًا رئيس الأطباء: " هو أعلم أهل زمانه بهذه الصناعة، وأحذقهم وأعرفهم بالعلاج ". انظر : الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، المعروف باسم: المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا للخالدي، تحقيق : أشرف محمد أنس، القاهرة = = ٢٠٠٦م، ج١، ص٤٢٢. وعن مهام رئيس الأطباء، انظر : ابن الأخوة " معالم القربة في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه روبن ليوي، كمبردج ١٩٣٨م، ص١٦٥-١٦٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦٧؛ انظر أيضًا : أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م، ص٢٤.

(٣٤) أبو الحسن الماوردي : هو علي بن محمد بن حبيب المصري، الماوردي الشافعي، من أشهر علماء القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، له عدة مؤلفات أهمها " الحاوي " في الفقه، وكتاب " تفسير القرآن "، وكتاب " الأحكام السلطانية "، وكتاب " قانون الوزارة وسياسة الملك ". حمل لقب " أقضى القضاة " لُقب به في سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م، وتولى

أنه "لو لم يعرفه جيدًا ما نظمه"[٣٦]، مما يدل على مدى تبحره في علم الفقه، ودفع ذلك بعض المؤرخين إلى نعته بأنه كان "إمامًا جليلاً"[٣٧].

بالإضافة إلى ذلك كان لعماد الدين إسماعيل أبو الفدا مؤلفات في علوم أخرى مثل كتاب " الموازين " وكتابه المشهور في التاريخ " المختصر في أخبار البشر "، وفي جغرافية البلدان: " تقويم البلدان "[٣٨]. كما كان له مؤلفات أخرى وأشعار كثيرة وعدة موشحات[٣٩]. ويجمل ابن تغري بردي العلوم التي برع فيها عماد الدين إسماعيل بقوله: "وبرع في الفقه والأصول والعربية والتاريخ والأدب والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة "[٤٠]. وقد نبغ في تلك العلوم أو على حد تعبير ابن العماد الحنبلي: " تفنن فيها "[٤١].

وهكذا نبغ عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في العديد من العلوم والمعارف، ولم يقتصر دوره فقط على التحصيل والدرس، وإنما تعداه إلى التأليف في علوم شتى، وبلغت مؤلفاته درجة كبيرة من الإجادة، لدرجة دفعت بعض المؤرخين إلى وصفه بأنه " كان أعجوبة أعاجيب الدنيا "[٤٢]. وعلى هذا النحو كان لعماد الدين إسماعيل أبو الفدا دور كبير في دفع عجلة الحضارة الإنسانية.

ومن الجدير بالذكر أن معاصره ابن أيبك الصفدي، قرر أنه كانت لدى عماد الدين مكتبة ضخمة ضمت صنوف عديدة من الكتب، انتقاها بعناية فائقة، وعلى حد قول ابن أيبك " أمده على اقتنائها انتقاؤه وفطانته، فمنها الجواهر القيمة، والزواهر التي هي في أفقه مقيمة ". وبعد وفاته تولى ابنه الملك الأفضل توزيع هذه الكتب على أصدقاء والده،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القضاء في بلدان كثيرة، وفي أواخر أيامه أقام ببغداد حيث توفي بها عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، بعد أن بلغ ستًا وثمانين عامًا. انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨م، ج١٥، ص٥٢-٥٥؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت ١٩٨٤م، ج١٨، ص٦٤-٦٨؛ انظر أيضًا : أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة ١٩٤٥م، ص٢٢٥.

(٣٥) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٣٦) ابن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٣٧) المرتضى الزبيدي : ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق : صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٧١م، ص٥٦.

(٣٨) أحمد الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٤٦١؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٣٩) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

(٤٠) النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٤١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٦، ص٩٨.

(٤٢) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٦، ص٩٩.

كما أنه وقف بعضًا منها[٤٣].

وهكذا كانت حياة عماد الدين إسماعيل مليئة بالأحداث السياسية، وفي نفس الوقت نتيجة حبه للعلم والدرس أحب العلماء[٤٤]، ولم يتردد في إجزال العطاء لهم، فهذا هو جمال الدين محمد بن نباتة، الذي أجرى له راتبًا سنويًا، سوى ما كان " يتحفه به إذا قدم عليه "[٤٥]. لأن ابن نباته لم يكن مقيمًا بحماة، وإنما كان مقيمًا بدمشق، ويذكر الصفدي أنه رتب لجمال الدين بن نباته ستمائة درهم كل عام[٤٦]. وقد مدحه ابن نباتة بقصائد كثيرة[٤٧].

وسيرًا على سياسة أبو الفدا في الإغداق على العلماء، تلك الأموال والهدايا التي منحها لرئيس الأطباء جمال الدين بن المغربي، بعد أن شفى ولده الملك الأفضل محمد، فيذكر ابن حجر العسقلاني أنه " أعطاه فرسًا بكنبوس زركش، وعشرة آلاف، واعتذر إليه مع ذلك، ووعده أنه إذا توجه إلى حماة يكافيه "[٤٨].

تمتع عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بخلق طيب، فقد أجمع المؤرخون على وصفه بأنه كان ذو " مكارم وفضيلة تامة "[٤٩]. " وجامعًا للفضائل "[٥٠]، ولاشك في أنه كان لنشأته الأولى أثر كبير في ذلك، فقد شب في وسط أسرة تحلت بكل أوصاف الخلق

---

(٤٣) أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٣٠٤، ٣٠٥.
أمَدَّه بمعنى أعانه بمدد. انظر: المعجم الوسيط، ج٢، ص٨٩٢.

(٤٤) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي : ج٢، ص٤٢٣.

(٤٥) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٣؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠٢.

- جمال الدين محمد بن نباتة هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن صالح بن علي = = ابن نباتة، الفارقي الأصل المصري المولد، ولد في زقاق القناديل بالفسطاط عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، ونشأ بالديار المصرية، وتعلم بها، ثم رحل إلى الشام حيث اتصل بملوكها خاصة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، وأخذ يتردد على حلب ودمشق وطرابلس، وفي أخر أيامه استقر بدمشق، توفى عام ٧٦٨هـ/١٣٦٧م بالقاهرة. انظر : ابن قاضي شهبة : تاريخه، تحقيق : عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، المجلد الثالث، الجزء الثاني، ص٢٠٣-٢٠٥؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٣٩-٣٤٠؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ص٩٣-١٠٦.

(٤٦) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤.

(٤٧) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨.

(٤٨) الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٩.

(٤٩) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٩٣؛ ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨؛ ابن سباط : صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط، تحقيق : عمر عبدالسلام، بيروت ١٩٩٣م، ج٢، ص٦٥١.

(٥٠) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

القويم[٥١]، وقد انعكس ذلك على كافة تصرفات عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أثناء فترة شبابه حيث كان أميرًا بدمشق، فأحبه الجميع[٥٢].

منذ عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م بعد وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، وخروج حماة عن يد ملوك البيت الأيوبي بتولية الأمير قره سنقر المنصوري حكمها[٥٣]، استقر الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بدمشق، حيث صار من جملة أمراء دمشق[٥٤]، وكان له من العمر في ذلك الوقت ستة وعشرون عامًا، حيث بلغ من النضج مبلغًا كبيرًا وأثقله ما حصله من العلوم، ولذلك أخذ يشارك مشاركة فعالة في أحداث عصره.

شارك عماد الدين إسماعيل في صباه في الأحداث السياسية المعاصرة له، كما شارك في بعض المعارك، مثل مشاركته عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م - وكان عمره آنذاك اثنى عشر سنة - في فتح حصن المرقب زمن السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)، ويقول أبو الفدا : " يقول العبد مؤلف هذا المختصر، إنني حضرت حصار الحصن المذكور وعمري إذ ذاك اثنى عشر سنة، وهذا أول قتال رأيته، وكنت مع والدي "[٥٥].

كما شارك في مطلع شبابه في الكثير من المعارك، مثل مشاركته عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م في فتح عكا، وكان آن ذاك يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا حيث كان أمير عشرة "[٥٦].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٥١) مدح المؤرخون معظم أفراد أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي حكام حماة. انظر : أحمد ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٣٩٨-٤٠٦، ص٤٣٩-٤٤٥.

(٥٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٥٣) أبو الفدا : المختصر، ج٤، ص٦١؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٣٧٩.

(٥٤) ابن تغري : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٥٥) المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢١.

وعن فتح حصن المرقب، انظر : ابن يبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق : أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م، ص٢٦٨-٢٧٠.

- المرقب : يقول ياقوت الحموي : " هو اسم بلدة وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام – البحر المتوسط – وعلى مدينة بُلُنياس ". انظر: معجم البلدان، ج٥، ص١٠٨.
- المنصور قلاوون : هو السلطان المنصور قلاوون اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب بألف دينار، ولذلك سمي بالألفي، تولى السلطنة عام ٦٧٨هـ/١٢٩٩م. واستمر في السلطنة إلى حين وفاته عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. انظر : الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهر والأعلام، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م، ج١٤، ص٦٩٠-٦٩١.

(٥٦) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٢٤.

- أمير عشرة : مرتبة حربية خاصة بأرباب السيوف، يكون صاحبها مقدمًا على عشرة

كذلك مشاركته عام ٦٩١هـ/١٢٩٢م وعمره تسعة عشر عامًا في الحصار الذي فرضه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) على قلعة الروم، يقول أبو الفدا : " وهذا الحصار أيضًا من جملة الحصارات التي شاهدتها "[٥٧].

كذلك شارك عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م، في الحملة التي توجهت إلى سيس فيقول : " وورد الأمر إلى زين الدين كتبغا نائب السلطنة بحماة أن يسير بالعساكر إلى بلاد السيس فخرج كتبغا المذكور من حماة، وخرجنا صحبته في يوم السبت الخامس والعشرين من شوال من هذه السنة (٧٠١هـ)"[٥٨]، كما شارك في المناوشات والمعارك التي وقعت مع السلطان محمود غازان خان الدولة الإيلخانية[٥٩].

والمعروف أنه في تلك الفترة كان السلطان الناصر محمد يمر بضائقة شديدة، حيث وقع فريسة صراع مرير بين أمراء المماليك، رغبة منهم في الاستئثار بالسلطة، وذلك لصغر سنه حيث كان يبلغ من العمر آنذاك اثنى عشر عامًا، ووصل الأمر بهؤلاء الأمراء أن حجروا وضيقوا عليه، الأمر الذي دفعه إلى الهروب من مصر عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م فتظاهر بالذهاب إلى الحج وتوجه إلى حصن الكرك، فما كان من أمراء المماليك إلا أن خلعوه من السلطنة، وولوا مكانه الأمير سلار الذي اعتذر وعرضها على الأمير بيبرس الجاشنكير[٦٠].

فرسان، وربما كان له عشرون، لكن يعد في أمراء العشرات. انظر : القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص١٥.

(٥٧) المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٧.

- قلعة الروم : قلعة حصينة تقع غربي الفرات، مقابل البيرة، بينها وبين سميساط. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٠.

(٥٨) المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٤٣.

- سيس: يقول أبو الفدا: " بلدة كبيرة ذات قلعة بأسوار ثلاثة على جبل مستطيل، ولها بساتين وشهر صغير وهي قاعدة الثغور الشمالية ". تقويم البلدان، ص٢٩٢؛ انظر أيضًا: كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وآخرون، بيروت ١٩٨٥م، ص١٧٣.

(٥٩) الإيلخانيون : يرجع إطلاق اسم الإيلخانيين على هذه الدولة إلى كلمة " آيل المغولية "، بمعنى المطيع للخان. انظر فؤاد عبدالمطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص٢٨؛ حامد زيان : المماليك التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م، ص٧١.

- السلطان محمود غازان : تولى حكم المغول بفارس عام ٦٩٤هـ/١٢٦٤م. ثم اعتنق الإسلام وتسمى باسم محمود، وجعل الإسلام دينًا رسميًا لدولة مغول فارس، واستمر في الحكم إلى وفاته عام ٧٠٣هـ/١٣٠٤م. البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، تحقيق: عمر عبدالسلام، بيروت ٢٠٠٦،، ج٢، ص٢٠٧-٢٢١؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتحارب النافعة، ص٥٢٢.

(٦٠) المقريزي : السلوك، ج٢، ق١، ص٤٣-٤٥؛ انظر أيضًا : حامد زيان : المماليك، التاريخ

رفض الكثير من الأمراء ما آل إليه مصير السلطان محمد وخلعه من السلطنة، وتولية بيبرس الجاشنكير سلطنة المماليك في مصر والشام، فآثر الكثير منهم معاضدته والذهاب إليه في الكرك، وكان من بين هؤلاء الأمير عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، الذي اظهر إخلاصًا شديدًا له وقدم إليه خدمات جليلة[٦١].

وهكذا ارتبط الأمير عماد الدين إسماعيل أبو الفدا برباط المحبة والصداقة مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وخاصة أثناء إقامة الأخير بالكرك، في الفترة الواقعة بين شهر شوال عام ٧٠٨هـ/ مارس ١٣٠٩م وشهر شعبان عام ٧٠٩هـ/ يناير

السياسي، ص٣٩-٤٠.

- الناصر محمد : هو السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، تولى السلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف خليل عام ٦٩٣هـ/١٢٩٤م وله من العمر تسع سنوات، مما جعله ألعوبة في أيدي أمراء المماليك، ولذلك عزل أكثر من مرة، وقد تولى الناصر محمد السلطنة ثلاث مرات الأولى بين عامي (٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م)، والثانية بين عامي (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م)، والثالثة بين عامي (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م). انظر: ابن أيبك الدواداري : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٣٥٢-٤٠٠؛ الدر الفاخرة في سيرة الملك الناصر، ص٦-١٨٩.
- حصن الكَرَك : قلعة حصينة جدًا في طرف الشام من نواحي البلقاء، بين أيلة وبحر القُلزم – البحر الأحمر – وبيت المقدس. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤، ص٣٥٣.
- الأمير سلار : هو الأمير سيف الدين سلار بن عبدالله المنصوري، تركي الجنس، كان أبوه أحد الأمراء عند صاحب الروم ووقع في أسر الظاهر بيبرس في موقعة الإبلستين عام ٦٧٠هـ/١٢٧٧م، ثم اشتراه قلاوون، وترقى وصار من أعيان السلطنة المملوكية، وتولى العديد من الوظائف، توفى عام ٧١٠هـ/١٣١٠م. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٦، ص٥-١٣.
- بيبرس الجاشنكير : هو بيبرس البرجي العثماني الجاشنكير، من مماليك المنصور قلاوون، ترقى إلى أن قرره قلاوون جاشنكير – أي الأمين على تذوق الأطعمة والمشروبات – تولى السلطنة عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وتلقب بالمظفر ثم تركها على أثر عودة الناصر محمد عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، حيث تم القبض عليه، وانتهى أمره بالقتل في نفس العام. انظر : البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، ج٣، ص٤٠٣-٤٤٨؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، ص٣٦-٤٠.

(٦١) ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص١٥٦-١٧٢؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠١-١٠٢.

١٣١٠م[٦٢]. وخلال تلك الفترة توثقت علاقة عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بالسلطان الناصر محمد، حيث قام على خدمته خير قيام، لدرجة أن المؤرخ الصفدي يقول " وبالغ في ذلك "[٦٣].

وكان نتيجة إخلاص عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في خدمة السلطان الناصر محمد، أن وعده بحكم حماة[٦٤]، وكما سبقت الإشارة فإن حكم حماة خرج عن يد أبناء تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، منذ وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود عام ٦٩٨هـ/١٣٩٩م.

وفي عام ٧١٠هـ/١٣١٠م وَفىَ السلطان محمد بوعده لعماد الدين إسماعيل أبو الفدا، حيث أنعم عليه بحكم حماة، فقد أرسل إلى أبي الفدا أثناء إقامته بدمشق تقليدا بنيابة حماة، وصدر هذا التقليد بتاريخ ١٨ جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/ ١٤ أكتوبر ١٣١٠م[٦٥]. فتوجه أبو الفدا في نفس اليوم إلى حماة لتولي أمرها بدلاً من الأمير سيف الدين اسندمر[٦٦]. غير

---

(٦٢) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ص١٠١-١٠٢؛ ابن أيبك : الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص١٥٦-١٧٢.
خلال هذه الفترة تم عزل الناصر محمد عن سلطنة المماليك، وأقيم مكانه بيبرس الجاشنكير سلطانًا على مصر والشام. انظر : حامد زيان، المماليك، ص٤٠.

(٦٣) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ انظر أيضًا : ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٦؛ انظر أيضًا : الموسوعة العربية الميسرة، بيروت ٢٠٠٩م، ج١، ص٦٨.

(٦٤) ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٦.

(٦٥) النويري : نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦٥؛ ابن سباط : ج٢، ص٦٠٥.

(٦٦) أبو الفدا : المختصر، ج٣، ص٦٠؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٩٧-٧١١هـ) أبو ظبي، تحقيق : حمزة عباس، ج٢، ص١٣٢٣؛ البرزالي : المقتفى على كتاب الروضتين، ج٣، ص٤٧٤.

- الأمير سيف الدين اسندمر: عُرف في التاريخ بأنه كان جبارًا سفاكًا للدماء، كما عُرف بحبه للأكل، كما كان يحب الفضلاء، تأمر بدمشق، ثم تولى نيابة طرابلس عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م، ثم تولى نيابة حماة بعد خروج الناصر من حصن الكرك عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، لكن حدث خلاف بينه وبين الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا وهو أمير آل فضل والعرب بالشام، مما دفع الأخير إلى الشكوى منه للسلطان الناصر محمد، فأمر السلطان بنقل اسندمر إلى طرابلس وعهد بحكم حماة للملك عماد الدين، فرفض استدمر مغادرة حماة، إلا أن وفاة الأمير سيف الدين قبجق المنصوري نائب حلب، حلّت المشكلة، حيث غادر حماة متوجهًا إلى حلب رغمًا عن السلطان الناصر، فوافق الناصر، لكنه اضمر له شرًا، حيث تم قتله في ذي القعدة عام ٧٢١هـ/ نوفمبر ١٢٢١م. انظر: ابن أيبك الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٣٢٢-٣٢٣؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٤١٤-٤١٥؛ النويري :

أن عماد الدين لم يستطع الدخول إلى حماة إلا بعد أن غادرها الأمير اسندمر الذي توجه إلى حلب، ليتولى حكمها بدلاً من الأمير سيف الدين قبجق المنصوري الذي وافاه الأجل فوافق السلطان محمد على ذلك، ومن ثم دخل عماد الدين إسماعيل حماة في أواخر جمادي الآخرة من نفس العام وتولى حكمها[٦٧].

وبذلك عادت حماة إلى حكم بيت تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، أو كما يقول أبو الفدا " عودها إلى البيت التقوي "[٦٨].

ازدادت العلاقة الطيبة بين عماد الدين إسماعيل أبو الفدا والسلطان الناصر محمد، وأخذ أبو الفدا يتردد على السلطان في القاهرة، فيزوره كل عام حاملاً معه مختلف الهدايا[٦٩]. وقد ازدادت محبة السلطان له بسبب ما تحلى به أبو الفدا من أدب وفضائل[٧٠]، مما أدى إلى أن يكرمه السلطان ويعظمه[٧١].

ولما أنس السلطان بأبي الفدا آثر أن يصطحبه معه أثناء حجه عام ٧١٩هـ/ ١٣٢٠م[٧٢]. وخلال هذه الصحبة ازداد تعلق السلطان الناصر محمد بأبي الفدا، لما لمسه

نهاية الأرب، ج٣٢، تحقيق : فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م، ص١٦٥.

(٦٧) النويري : : نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦٥.

- سيف الدين قبجق : هو سيف الدين قبجق المنصوري، أصله من المغول، وقع أسيرًا في يد الظاهر بيبرس عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، أثناء إغارة المغول على مدينة الابلستين، فأعطاه للمنصور قلاوون، وخشي المنصور قلاوون أن ينحاز إلى المغول، فكان يرفض خروجه إلى الشام، وبعد وفاة المنصور أخذت تعلو مكانته، إلى أن تولى نيابة الشام عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م أثناء سلطنة لاجين ثم حدث خلاف بينه وبين لاجين فر على أثره قبجق إلى بلاد محمد غازان المغولي عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، واستمر في خدمة غازان، حتى انتصر غازان في موقعة الخازندار على جيوش المماليك، فعهد إليه غازان بنيابة الشام، ثم عاد إلى رشده وانضم إلى أمراء المماليك، وحارب إلى جانبهم ضد غازان في موقعة شقحب، وولاه الناصر محمد نيابة حلب في شوال عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م واستمر بها حتى وفاته في أواخر جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/أكتوبر ١٣١٠م. انظر : ابن حجر العسقلاني : الدرر، ج٣، ص٣٢٥-٣٢٧؛ ابن أيبك الصفدي: أعوان العصر وأعوان النصر، ج٣، ص١٤١٦-١٤٢١؛ ابن القفطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، ص٥٣٩.

(٦٨) المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٦٠.

(٦٩) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤؛ ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٢٤٤.

(٧٠) البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، ج٢، ص٢٢٨، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٧١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٤، ص١٥٨.

(٧٢) ابن دقماق : النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت

من كرم وطيب أخلاق ومودة " وعظم في عين السلطان "، على حد قول ابن حجر العسقلاني[٧٣]. ونتيجة ذلك أنعم عليه السلطان - في شهر صفر عام ٧٢٠هـ/ مارس ١٣٢٠م، بعد عودتهما من رحلة الحج وأثناء تواجده بالقاهرة - بلقب المؤيد، وأذن له بأن يخطب له بحماة وأعمالها، وأن يخاطب بالمقام العالي ، المولوي، السلطاني، الملكي، المؤيدي[٧٤].

وهي نفس الألقاب التي كانت لعمه الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي. وتؤكد معظم المصادر أن السلطان الناصر محمد، لم يكتف بأن يمنح عماد الدين إسماعيل حكم حماة، ويجعله مثل سائر النواب حكام مختلف نيابات السلطنة، وإنما " جعله سلطانًا يفعل فيها ما يشاء من إقطاع وغيره، ليس لأحد في الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم "[٧٥]. وهذا لم يتسن لأحد من الأمراء غيره، مما يدل على تلك المكانة العالية التي وصل إليها عماد الدين إسماعيل عند السلطان الناصر محمد.

فما كان من عماد الدين إسماعيل أبو الفدا إلا أن ركب بشعار السلطنة، أثناء وجوده بالقاهرة ومشي من المدرسة المنصورية بين القصرين، حتى صعد إلى القلعة وبين يديه جميع خواص القاضي وسائر الناس، ومشي السلحدار بالسلاح والدويدار الكبير بالدواة والغاشية والعصايب، وجميع دست السلطنة بين يديه[٧٦]. حيث قدم فروض الطاعة

١٩٩٩م، ص١٢٦؛ المقريزي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م، ص١٠٢؛ ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٢٩٥.

(٧٣) الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

(٧٤) البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، ج٤، ص٤١٥؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠٢؛ ابن سباط : صدق الأخبار المعروف باسم تاريخ ابن سباط، ج٢، ص٦٣٧.

- يقول القلقشندي أن لقب " المقام " من الألقاب الخاصة بالملوك، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٩٣؛ وتذكر المصادر أن السلطان الناصر محمد لقب عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أولاً بلقب الملك الصالح، ثم لقبه بعد ذلك بلقب الملك المؤيد. ابن أيبك الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٣٠٣.

(٧٥) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٣؛ ابن أيبك الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص٣٠٣.

(٧٦) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠٢.

- السلحدارية : لفظ مكون من مقطعين الأول عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار بمعنى الممسك، فيكون المعنى حامل السلاح ويحمل مقدمهم لقب أمير سلاح، وموضوعها حمل السلاح للسلطان في مختلف المجامع، انظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص١٨.

- الدودار : لفظ مركب من مقطعين الأول عربي وهو دواة، والثاني فارسي وهو دار بمعنى ممسك أو حامل الدواة، يتولى هذه الوظيفة عدد من الأمراء، على أن يكون مقدم ألف ويختص صاحب هذه الوظيفة بحمل دواة السلطان أو الأمير، بالإضافة إلى تبليغ الرسائل

والولاء والشكر للسلطان، وبعدها عاد إلى حماة، بعد أن جهز السلطان سائر ما يحتاج إليه[٧٧]، ويقول معاصره البرزالي: " فدخل حماة في أُبَّهة السلطنة، وتلقاه الناس وخُطب له "[٧٨].

وقد أشار القلقشندي[٧٩] إلى أن طبيعة حكم عماد الدين إسماعيل لحماة اختلفت عن سائر الحكام الآخرين؛ الذين حكموا مختلف البلاد التابعة لسلطنة المماليك، وقد اعتمد في ذلك على ما ذكره أحد الكُتَّاب المعاصرين له وهو: شهاب الدين أحمد بن يحي العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، الذي أشار إلى أن حاكم حماة، ويقصد بذلك معاصره عماد الدين إسماعيل : " كان يستقل فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات، وتولية القُضاة والوزراء، وكُتَّاب السر وكل الوظائف، ويكتب المناشير والتواقيع من جهته "[٨٠]. وقد أكد على ذلك القلقشندي عندما تحدث عن حماة فقال : " إنها كانت بيد بقايا بني أيوب، يطلق عليهم لفظ السلطنة "[٨١]. وعلى هذا النحو كان عماد الدين إسماعيل سلطانًا مستقلاً يقوم بتولية من يراه صالحًا للإمارة والإقطاعات، ويولي القضاة والوزراء وكُتَّاب السر، وسائر الوظائف الكبيرة، دون أن يعود في ذلك إلى مقر السلطنة في القاهرة، اللهم إلا في الأمور

عن السلطان، وتقديم القصص والبريد إليه. القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص١٩.

- الغاشية : قطعة مصنوعة من الجلد موشاه بالذهب، بحيث يظن الناظر إليها أنها كلها ذهبًا، يلقيها حاملها أمام السلطان أو الأمير يمينًا وشمالاً. انظر : القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٣.
- العصايب : هي غطاء للرأس، عبارة عن قطعة من القماش، كالعمامة. انظر : وليم ماير : الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة ١٩٧٢م، ص١٢٦.
- دست السلطنة : يقول القلقشندي أنها وظيفة من أجل الوظائف وأرقاها قدرًا وموضوعها أن يجلس أصحابها بدار العدل أيام المواكب خلف كاتب السر، ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة وكاتب السر ويكتبوت عليها بما تقضيه الحال، وكانوا في البداية ثلاثة أشخاص، ثم ازدادوا إلى العشرين. انظر : صبح الأعشى، ج١، ص١٠٤.

(٧٧) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٥٥، ٩١؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١، ص٢٠٢؛ ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٢٩٧م.

(٧٨) المقتفى على كتاب الروضتين، ج٤، ص٤١٥؛ انظر أيضًا : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧؛ المقريزي : السلوك، ج٢، ق١، ص٢٠٢.

(٧٩) صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٢-١٨٣.

(٨٠) العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٥م، ص٦٦.

(٨١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٧، ص١٧٧.

الكبيرة التي يشاور فيها السلطان[٨٢].

وهكذا علا شأن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، لدرجة أن الأمراء الكبار كانوا يخاطبونه بلقب " المقام العالي " ويكتبون إليه " يقبل الأرض " مثل الأمير سيف الدين تنكز[٨٣]، وهو من الأمراء الذين كانت لهم هيبة عظيمة بدولة المماليك، فكان يكتب إليه : " يقبل الأرض المقام الشريف العالي المولوي السلطاني المالكي المؤيدي العمادي "[٨٤]. كذلك كان السلطان الناصر محمد يكتب إليه " أخاه محمد بن قلاوون، أعز الله أنصاره المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي"[٨٥].

وعلى هذا النحو بلغ صاحبنا مكانة عالية في دولة المماليك، فقد احترمه السلطان الناصر محمد احترامًا زائدًا، ونال لديه حظوة كبيرة[٨٦]، كذلك كان حاله مع معظم أمراء المماليك الذين تولوا حكم نيابات الشام، الذين أمر السلطان أن يخاطبوه كما كانوا يخاطبون السلطان ويقدمون إليه الاحترام اللازم. واستمر ذلك إلى حين وفاته عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م[٨٧]. وفي نفس هذا المعنى يقول ابن حجر العسقلاني أن عماد الدين إسماعيل " عظم في عين السلطان لما رآه من آدابه وفضائله "[٨٨].

بالإضافة إلى ذلك شارك عماد الدين إسماعيل في أمور السياسة والحرب، فكثيرًا ما انضم إلى الجيوش التي أرسلها السلطان الناصر محمد لمحاربة الخارجين عن السلطنة

---

(٨٢) العمري : مسالك الأبصار، ص٦٦؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٢-١٨٣.

(٨٣) ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤:

- الأمير سيف الدين تنكز : هو الأمير تنكز بن عبدالله الحسامي الناصري، تدرج في مختلف الوظائف حتى صار نائب الشام، وعلا شأنه عند السلطان الناصر محمد، وتزوج الناصر من ابنته، وزوج أولاد تنكز من بناته، وكان يسير في خدمته الأمراء من المماليك، والبقايا من أولاد ملوك بني أيوب، وفي عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م غضب عليه السلطان الناصر، فاعتقله في سجن الإسكندرية، ثم قتله عام ٧٤١هـ١٣٤٠م، وصادر ممتلكاته. انظر : ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان وأبنائه، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٨٨م، ج٢، ص١٠٥؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٤، ص١٥٦-١٥٧؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٣م، ج١، ص٤٧٨؛ ابن أيبك الصفدي : أعوان العصر، ج١، ص٥٣٠-٥٣١.

(٨٤) ابن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص٤٠؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٨٥) ابن أيبك الصفدي : أعيان العصر، ج١، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٨٦) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٣؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٨٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص١٣٩؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٨٨) الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

المملوكية ببلاد الشام ومحاربة الأرمن[٨٩].

ومما سبق يتضح إخلاص عماد الدين إسماعيل للسلطان الناصر محمد إخلاصًا تامًا، وفي المقابل قدر الناصر محمد هذا الإخلاص، فقابله بالإنعام، وقد عبر عن ذلك خير تعبير معاصره المؤرخ ابن أيبك الدواداري بقوله : " فوصل - أي عماد الدين - بحسن عقله ودينه، وخدمته، إلى ما وصل، أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة، فإنه مستحق لذلك "[٩٠].

وعلى هذا النحو يقر ابن أيبك وغيره من المؤرخين أن ما تمتع به عماد الدين إسماعيل من حُسن عقله وأدابه وفضائله ودينه، وإخلاصه في خدمة السلطان الناصر محمد، هو الذي جعل الناصر محمد يأمن إليه، على الرغم مما اشتهر عنه من تخوفه ممن يصل من الأمراء إلى مكانة كبيرة، فكان لا يتردد في التخلص منهم، بعد أن يثبت لديه أنهم اقترفوا ذنبًا[٩١].

وبلغ تقدير السلطان الناصر محمد لعماد الدين إسماعيل أبو الفداء أنه بعد وفاة الأخير رعى السلطان الناصر معزته وتقديره، فعهد إلى ابنه الملك الأفضل محمد بحكم حماة، وأقر ما كان سائدًا أيام أبيه الملك عماد الدين إسماعيل أبوالفدا[٩٢]. وبعد عزل الأفضل محمد عن حكم حماة عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م، لم يعهد السلطان المملوكي إلى أحد من بني أيوب بحكمها، فخرج حكمها عنهم، حيث صارت نيابة يتداول حكمها نائب بعد نائب على حد قول القلقشندي[٩٣].

لم تشغل أمور السياسة والحكم عماد الدين إسماعيل أبو الفدا عن ممارسة هوايته وميوله الطبيعية وحبه وشغفه بالعلم والدرس، فقد أحب العلماء وقربهم إليه، كما انغمس في تأليف الكثير من المؤلفات العلمية، كما سبقت الإشارة.

وسوف يقتصر حديثنا عن مؤلفين فقط من مؤلفاته: الأول في التاريخ وهو " المختصر في أخبار البشر "، والثاني في الجغرافيا وهو " تقويم البلدان "، أما كتابه المختصر في أخبار البشر، فقد تناول فيه تاريخ البشرية منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام، وحتى نهاية عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م، واعتمد أبو الفدا في جمع مادته العلمية في الفترة السابقة عليه، على مجموعة كبيرة من المؤرخين المشهود لهم بالصدق

---

(٨٩) ابن تغري بردي : النجوم، ج٩، ص٢٤.

(٩٠) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٣٦٥.

(٩١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٤-٥٣٤.

(٩٢) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٤٢٣؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٧، ص١٣٩.

(٩٣) صبح الأعشى : ج٧، ص١٧٧.

- تولى نيابة حماة الأمير سيف الدين طقزتمر الذي كان مملوك عماد الدين إسماعيل أبوالفدا. انظر : ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٤٧٣.

والأمانة، مثل كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه، والتاريخ المظفري لابن أبي الدم الحموي، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وكتاب تاريخ اليمن لعمارة اليمني، وكتاب المُغرب في أخبار أهل المغرب لابن سعيد، وكتاب الكامل لابن الأثير، وكتاب مفرج الكروب لابن واصل وغيرهم[٩٤]. أما الفترة التي عاصرها، فيعتبر ما سجله أبو الفدا في كتابه المختصر في أخبار البشر، وثيقة تاريخية هامة، حيث أنه كان شاهد عيان لها.

أما المنهج الذي سار عليه أبو الفدا فقد أشار هو إليه حيث قسمه إلى قسمين رئيسين، بالإضافة إلى مقدمة اشتملت على ثلاثة محاور، تحدث فيها عن أمور عامة وهامة لدارس التاريخ : المحور الأول يشير إلى ما يحيط التاريخ القديم من اختلافات، والمحور الثاني تحدث فيه عن نسخ التوراة، والمحور الثالث وضعه في صورة جدول؛ يوضح المدد الزمنية بين التواريخ المشهورة، سواء كانت ميلادية أم هجرية، أم غيرها من التواريخ[٩٥].

أما القسم الأول فقد تناول التاريخ القديم، والقسم الثاني يتناول التاريخ الإسلامي، أما القسم الأول الذي يتناول التاريخ القديم، فقد جاء في خمسة فصول، حمل الفصل الأول عنوان : " في عمودم التواريخ القديمة وذكر الأنبياء على الترتيب ". والفصل الثاني بعنوان : " في ذكر ملوك الفرس وهم أربعة طبقات "، والفصل الثالث بعنوان : " في ذكر فراعنة مصر "، والفصل الرابع بعنوان : " في ملوك العرب قبل الإسلام "، أما الفصل الخامس فجاء بعنوان : " في ذكر الأمم "[٩٦]. أما القسم الثاني، وهو الذي يتناول التاريخ الإسلامي، فقد رتبه على السنين وفق كتاب الكامل لابن الأثير، أي اتبع أسلوب الكتب الحولية، وهو الأسلوب الذي اتبعه كثير ممن سبقه من المؤرخين[٩٧].

وقد تميز كتاب المختصر في أخبار البشر بعدة ميزات أهمها كونه مختصرًا لحوادث التاريخ، فالكثير ممن سبقه من المؤرخين جاءت كتبهم في عشرات المجلدات، مما شكل صعوبة كبيرة أمام قارئ التاريخ، فعلى سبيل المثال جاءت الفصول الخمسة التي تناولها التاريخ القديم في حوالي مائتي صفحة فقط، شكلت نصف الجزء الأول فقط في كتاب المختصر في أخبار البشر، مما يسهل على القارئ الإلمام بالتاريخ القديم في سهولة ويسر.

أما القسم الثاني وهو الذي يتناول التاريخ الإسلامي، فقد بدأه بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم تناول بعده تاريخ الخلفاء الراشدين، ثم تاريخ الدول التي تعاقبت على حكم العالم الإسلامي وفق السنوات كما سبقت الإشارة، أما الأسلوب الذي اتبعه في

---

(٩٤) أبو الفدا : المختصر، ج١، ص٣.
(٩٥) المختصر، ج١، ص٣-٧.
(٩٦) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج١، ص٨-١٠٩.
(٩٧) أبو الفدا : المختصر، ج١، ص٣؛ انظر أيضًا : صلاح الدين المنجد : أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، بيروت ١٩٧٨م، ص١٣-٣٨.

عرضه للأحداث فتميز بالاختصار لما وقع من أحداث خلال السنة، ثم يعرض بعد ذلك لأهم الشخصيات التي توفت في هذه السنة، دون أن يعمد إلى الإطالة ولا إلى الاستطراد، وكما هي عادة مؤرخي الحوليات، فإنه عندما لا يجد في احدى السنوات ما يستحق تدوينه من أحداث، فكان يهمل ذكر أحداثها، كما فعل في عام ٧٢٩هـ عندما قال: " وكانت غرة المحرم من هذه السنة يوم الجمعة رابع تشرين الثاني، ولم يبلغني في أوائلها ما يليق أن يؤرخ والله أعلم "[٩٨]. وتوقف تاريخ أبو الفدا عند نهاية عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م.

وكما سبقت الإشارة قد استقى أبو الفدا مادته العلمية ممن سبقه من المؤرخين، وهنا نجد أنفسنا أمام ملاحظتين: الأولى أنه اعتمد على مجموعة من المؤرخين الثقاة أمثال ابن الأثير، وابن مسكويه، وعمارة اليمني، وابن خلدون، وابن أبي الدم الحموي وغيرهم، والملاحظة الثانية أنه لم يكتف بالنقل فقط، وإنما قام بنقد بعض الروايات التي رأى أنها لا تستقيم مع سائر الأحداث التاريخية.

أما الفترة التي عاصرها فيعتبر تسجيل أبو الفدا لأحداثها وثيقة تاريخية هامة، حيث سجل أحداثها من واقع مشاهداته ورؤيته، وهي رؤية مؤرخ وسياسي، كما أنه شارك مشاركة فعالة في أحداثها، مما جعله ملمًا بالكثير من خبايا الأمور.

فطوال هذه الفترة كان دائم القول، فسرنا، ....، بعد وصولي .... ، فعدنا ...، ورد كتابه يطلبنا ....، ثم عدنا إلى حماة .... "[٩٩]. أي أنه كان شاهد عيان على أحداث هذه الفترة.

كذلك فإن إقامة أبو الفدا ببلاد الشام سواء بدمشق أو بحماة، جعله قريب من البلاد التي وضع المغول أيديهم عليها، سواء في العراق أم في إيران، مما جعله على قدر كبير من معرفة أخبارهم، مما زاد من أهمية تاريخه، حيث روى لنا بعض الأحداث التي لم ترو عند غيره من المؤرخين.

ونتيجة ذلك؛ يمثل تاريخ المختصر في أخبار البشر أهمية كبيرة من بين كتب التاريخ الإسلامي، لذلك نجد أن الكثير ممن جاء بعده من الكُتَّاب يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، فعلى سبيل المثال من بين أولئك الكُتَّاب المشهورين الذين اعتمدوا على تاريخ أبو الفدا كان، الكاتب أبو العباس أحمد القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى"، وبإحصاء عدد من أشار إليه القلقشندي صراحة في اعتماده على تاريخ المختصر لأبي الفدا، فكان أكثر من اثنين وأربعين موضعًا، وأخذ عنه الكثير من الآراء التي انفرد بها عماد الدين إسماعيل دون غيره من المؤرخين، مما يؤكد لنا أن أبي الفدا كانت له رؤية تاريخية خاصة به، توصل إليها عن طريق اطلاعاته العديدة، وقراءاته المتبحرة في كثير من العلوم.

في البداية نجده يقرر أن لفظ " تاريخ "، محدث في لغة العرب، فهو معرب من

([٩٨]) المختصر، ج٤، ص٩٩.

([٩٩]) المختصر، ج٤، ص٤٠-٤١.

الكلمة الفارسية " ماه روز "[١٠٠] وهو بمعنى " يوم الشهر " وهو ما قرره الكثير من المؤرخين والكُتَّاب[١٠١].

وهذا مما يدل على أن عماد الدين إسماعيل تمتع بنظرة ثاقبة في أمور الحياة، ونتيجة قراءاته ووعيه التاريخي، فأشار إلى حقيقة هامة وهي: أن السلطة والحكم لا يدوم، لذلك نجده يوجه خلال كتابه المختصر الكثير من المواعظ والحِكَم، ومن أمثلتها تلك التي قالها عقب سقوط الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/١١٧١م. حيث قال : " وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتمررت، ولم تصف إلا وتكدرت، بل صفوها لا يخلو من الكدر ".

كذلك فإنه عندما يتحدث عن مصر، وتاريخها الطويل، يقرر حقيقة واقعه بقوله: " وكان أهل مصر أهل ملك عظيم في الدهور الخالية، والأزمان السالفة، ما بين قبطي ويوناني وعمليق "[١٠٢].

وعندما يتحدث عن ذي القرنين، وهو الذي ورد في القرآن الكريم، وما أثير حول علاقته بالإسكندر الأكبر، يقول : " والصحيح أن الإسكندر المذكور لم يكن منه ذلك – أي صفات ذي القرنين – بل ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن وهو ملك قديم كان على زمن إبراهيم الخليل عليه السلام "، ويؤكد عماد الدين حديثه، بأن لفظ "ذو"، عربية محضة و" ذو القرنين " لقب من ألقاب العرب ملوك اليمن[١٠٣].

كما كانت له رؤية واضحة في طبيعة الكثير من الأمم والشعوب، ومثال ذلك ما ذكره عن اليهود عندما قال : " أمة اليهود أعم من بني إسرائيل، لأن كثيرًا من أجناس العرب والروم والفرس وغيرهم صاروا يهودًا، ولم يكونوا من بني إسرائيل، وإنما بنو إسرائيل هم الأصل في هذه الملة وغيرهم دخيل فيها "[١٠٤].

كذلك يقول عن عنصر الجراكسة : " وهم على بحر نيطس من شرقيه، وهم في شظف من العيش "[١٠٥].

---

(١٠٠) المختصر، ج١، ص١٢٣؛ انظر أيضًا : قاسم عبده قاسم : تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٦-١٧؛ روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، بيروت ١٩٨٣م، ص١٦-٢٨.

(١٠١) المختصر، ج٣، ص٥١.
يرى بعض المؤرخين أن أصل كلمة " تاريخ " عربي من كلمة " الارخ "، وهو ولد البقرة الصغير، أي أنه حدث كما يحدث الولد. انظر : السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عُني بنشره القدسي، بيروت ١٩٧٩م، ص٦؛ حامد زيان : علم التاريخ، القاهرة د.ت، ص٧.

(١٠٢) المختصر، ج٣، ص٤٠٧.

(١٠٣) المختصر، ج١، ص٤٥.

(١٠٤) المختصر، ج١، ص٨٧؛ انظر أيضًا : القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٥٣.

(١٠٥) المختصر، ج١، ص٩٢؛ انظر أيضًا : صبح الأعشى، ج٥، ص٤١٦.

أما رأيه في الجلالقة فيتمثل في قوله : " وهم أمة يغلب عليهم الجهل والجفاء، ومن زيهم أنهم لا يغسلون ثيابهم، بل يتركونها عليهم إلى أن تبلى، ويدخل أحدهم دار الآخر بدون استئذان، وهم كالبهائم، ولهم بلاد كثيرة في شمال الأندلس"(١٠٦).

ومما يوضح مدى دقه عماد الدين إسماعيل ما ذكره من أن أول من حمل لقب ملك من الوزراء الفاطميين في مصر هو : " الملك الأفضل وزير الخليفة الحافظ "(١٠٧).

ومما يدل على تمتع عماد الدين بالدقة في تسجيل حوادث التاريخ: تصحيحه لتلك المعلومة الواردة في كتب التاريخ من أن قحطان بن عابر بن ارفخشذ بن سام ابن نوح، هو التاسع من ملوك اليمن، غير أن عماد الدين أثبت أن قحطان هو أول ملوك اليمن(١٠٨).

كذلك قرر عماد الدين إسماعيل أن أول من ملك اليمن من بني رسول، هو علي بن رسول، وهذا على عكس من سبقه من المؤرخين الذين ذكروا أن أول ملوك اليمن من بني رسول هو المنصور عمر، وهو ابن علي بن رسول سابق الذكر. وقد أيد ابن خلدون رأي عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، وشايعه في ذلك عدد من المؤرخين(١٠٩).

كما ذكر عماد الدين إسماعيل أن الفاطميين قاموا بكسوة الكعبة المشرفة بالبياض عام ٢٨١ هـ/٩٩١م، وكان ذلك في إمارة أبي الحسن جعفر (من السليمانين)، على الرغم من أن الكسوة بالبياض قد انتهت بعد أن قام العباسيون بكسوتها بالسواد(١١٠).

ويبدو لنا أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بصفته من سلالة ملوك بني أيوب؛ اهتم اهتمامًا خاصًا بالكثير من حياة ملوك الأيوبيين الأوائل، فعلى سبيل المثال يقول إن جَدّه الأكبر صلاح الدين الأيوبي كان يتبرك بأحد الأشراف أمراء المدينة المنورة، وهو القاسم بن مهنا الذي ينتمي نسبه إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، حيث كان يصحبه في فتوحاته " يتبرك به، ويتيمن بصحبته، ويرجع إلى قوله"(١١١).

من ذلك أيضًا ما ذكره عماد الدين إسماعيل عن ظهير الدين طغتكين الأيوبي حاكم اليمن(١١٢)، من أنه تميز بالبخل والشح الشديد، وكيف كان يتحايل على التجار لأخذ ما لديهم من تجارة، ثم بيعها بعد ذلك بالأسعار التي يريدها، وفي ذلك يقول أبو الفدا :

---

(١٠٦) المختصر، ج١، ص٩٣؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٤١٤.

(١٠٧) المختصر، ج٣، ص١٦٠؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٩، ص٤٠٣.

(١٠٨) المختصر : ج١، ص٦٦؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص١٩.

(١٠٩) المختصر، ج٣، ص١٤٢؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٧، ص٣٣٩.

(١١٠) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص٢٨٠-٢٨١.

(١١١) المختصر،ج٣، ص٧٥؛ انظر أيضًا: القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص٢٩٨-٢٩٩، ٣٠٠.
- يذكر زامباور أن القاسم بن مهنا كان مصاحبًا لصلاح الدين الأيوبي منذ أن تولى حكم المدينة المنورة عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وحتى وفاته عام ٦٠٠هـ/٢٠١٤م. انظر : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج١، ص١٧٧.

(١١٢) هو الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين أبو الفوارس طغتكين بن أيوب، حكم اليمن بين سنتي ٥٧٧-٥٩٣هـ/١١٨١-١١٩٧م. انظر : زامباور : معجم الأسرات، ج٣، ص١٥٢.

"وكان شديد السيرة مضيقًا على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه، ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال مالاً لا يحصى حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره "[١١٣].

ويستفاد من النص السابق ذكره أن صاحبنا اتبع الموضوعية التاريخية في تأريخه، فلم يجنح إلى جانب أبناء البيت الأيوبي، ويصفح عما قاموا به من أعمال سيئة، ولكننا نجده يذكر مساوئ سيف الدين طغتكين وشحه وشدته على رعيته، وذلك على الرغم مما كان لسيف الدين طغتكين من دور كبير في توطيد النفوذ الأيوبي باليمن، فلم يشفع له ذلك عند أبي الفدا، وإنما أراد أن يبرئ ساحته كمؤرخ، ويذكر ما اتصف به من صفات سيئة.

ونفس الشيء يتكرر مرة أخرى، عندما يصف عماد الدين إسماعيل، أحد حكام أبناء البيت الأيوبي باليمن " بالهوج "، فعندما تحدث عن الملك إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين[١١٤]، قال عنه : " كان به هوج "، ويستطرد أبو الفدا في تحليل شخصية الملك إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين فيقول: إنه ادعى أنه من نسل أمية، وسيرًا على هذا الادعاء كان يلبس نفس الثياب التي كان يلبسها خلفاء بني أمية، فيذكر أبو الفدا أنه: " لبس ثياب الخلافة في ذلك الزمان، وكان طول الكم نحو عشرين شبرًا "[١١٥].

وقد أجمعت المصادر على أن الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين لم يكتف بذلك، وإنما سمى نفسه " المعز لدين الله "، وذلك على نفس اسم الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله الفاطمي، وخطب لنفسه بالخلافة في اليمن، وكان ذلك في أيام عمه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، فلما بلغ ذلك الملك العادل، أنكره إنكارًا شديدًا، وقال : " لقد كذب إسماعيل، ما نحن من بني أمية أصلاً "[١١٦].

وحديث عماد الدين إسماعيل ابو الفدا يفيد تأكيده على عدم اتصال نسب الأيوبيين ببني أمية، وهي قضية حاول البعض في بداية العصر الأيوبي إثارتها، غير أن السلطان صلاح الدين الأيوبي حسمها بقوله " ليس لهذا أصل أصلاً "، وذلك وفق ما ذكره ابن خلكان عما سمعه من شيخه بهاء الدين بن شداد[١١٧].

---

(١١٣) المختصر، ج٣، ص٩٣.

(١١٤) هو معز الدين إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين أبو الفوارس طغتكين بن أيوب، تولى حكم اليمن بين عامي ٥٩٣-٥٩٨هـ/١١٩٧-١٢٠٢م. انظر : زامباور : معجم الأنساب، ج١، ص١٥٢.

(١١٥) المختصر، ج٣، ص١٠٢.

(١١٦) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ص٤؛ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٢٧١-٢٧٢؛ ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ المعروف باسم الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق : سعيدعاشور، القاهرة ١٩٧٢م، ص٦.

(١١٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٧، ص١٤١.

أما كتاب تقويم البلدان: فقد ألفه عماد الدين إسماعيل بعد أن اطلع على ما سبقه من كتب الجغرافيا والبلدان، ولم يجد فيها غرضه في تحقيق الأسماء وذكر الأطوال والعروض، وصفات المدن. لذلك قام بتأليف كتاب " تقويم البلدان "، وقد اتبع أبو الفدا في تأليفه لكتاب تقويم البلدان منهجًا لم يسبقه إليه أحد. وقد أشار في مقدمته أنه سمي هذا الكتاب بـ " تقويم البلدان "، وجعله على نمط كتاب " تقويم الأبدان " لابن جزلة الطبيب(١١٨)، كما أنه سار على نفس طريقة ابن جزلة من وضع جداول، ولذلك هو أول من أدخل نظام الجداول في علم الجغرافيا(١١٩).

أما المنهج الذي سار عليه أبو الفدا في تأليف كتاب " تقويم البلدان "فقد بدأه بالحديث عن الأرض والأقاليم السبعة، ثم تحدث عن البحار والأنهار والجبال، ثم تحدث بعد ذلك عن البلدان بادئًا حديثه بجزيرة العرب.

اتبع أبو الفدا منهجًا خاصًا به في الحديث عن البلدان، لم يأخذه عن أحد من قبله، يتلخص في الحديث عن أهم أماكن البلد الذي تحدث عنه، ثم ذكر المسافات بين مختلف مدن هذا البلد، ثم يرسم جدولاً يوضح فيه اسم البلد، والمصدر الذي استقى منه معلوماته عن هذه المدينة، ثم ذكر طولها وعرضها، وموقعها في أي إقليم هي، ثم يذكر اسمها مضبوطًا، ثم يستأنف حديثه عن مدن هذا البلد بذكر الأوصاف والأخبار الهامة عن هذه المدينة، ثم بعد ذلك ينتقل إلى بلد آخر ويتحدث عن مدينة مدينة(١٢٠).

ومن الملاحظات الهامة أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، زيادة في الدقة، وحتى تكون أوصافه للبلاد والمدن التي ذكرها في كتاب " تقويم البلدان " صحيحة، استعان في بعض الأحيان ببعض أهل تلك البلاد، مثلما ورد عند حديثه عن جنوة، فيقول أبو الفدا واصفًا جنوة اعتمادًا على مشاهدات بعض أهلها : " وعن بعض أهلها أن جنوة في ذيل جبل عظيم، وهي على حافة البحر، ولها ميناء عليها سور، وهي مدينة كبيرة إلى الغاية، ولها بساتين فيها أنواع الفواكه، ودور أهلها عظيمة، كل دار بمنزلة قلعة، ولذلك اغتنوا عن عمل سور على جنوة، ولها عيون ماء منها شربهم وشرب بساتينهم "(١٢١).

---

(١١٨) أبو الفدا : تقويم البلدان، نشر مكتبة الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٦.
- ابن جزله هو يحي بن عباس بن علي بن جزله، كان في أيام الخليفة المقتدر العباسي (٢١٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م) من المشهورين في علم الطب، صنف كتاب " تقويم الأبدان " للخليفة المقتدر بأمر الله وكان نصرانيًا وأسلم عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م. انظر : ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٦٠.

(١١٩) كراشتكوفيسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح هاشم، القاهرة ١٩٦٣م، ج١، ص٣٩٣.

(١٢٠) انظر أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٥-١٢٢.

(١٢١) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٢٣٥؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٤٠٦.

كذلك اعتمد على المشاهدات الحية، في وصفه لطبيعة العمران بمختلف البلدان التي وصفها، ولم يكتف بالنقل عمن سبقه عن الجغرافيين، وخاصة في وصفه لعمارة البلاد، فقد أدرك أبو الفدا إدراكًا تامًا أن يد التعمير تؤدي بالضرورة إلى تغيير صورة البلد وتنقلها من حال إلى حال، لذلك رفض الاعتماد على الصور الوصفية لعمارة البلدان التي رصدها من سبقه من الجغرافيين السابقين.

وسيرًا على ذلك عندما تحدث عن مدينة بَرْدعة، وكانت في القرن الرابع الهجري عاصمة إقليم " آران " المجاور لإقليم أذربيجان[١٢٢]، ولذلك جاءت أوصاف ابن حوقل لها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، تنم عما تعج به هذه المدينة من مظاهر الحضارة، على الرغم مما قام به الكُرج من إغارات عليها، إذ يقول عن إحدى مواضعها: " مشتبكة البساتين، والعمارات طيبة المتنزهات، ولها فواكه كثيرة وغلات خطيرة، ومتاجر عظيمة "[١٢٣].

غير أن أبي الفدا لم يقبل أن ينقل هذه الأوصاف عن ابن حوقل، لعلمه عما حدث من تطورات عمرانية لمدينة بُرْدَعة في عصره، وفي ذلك يقول : " هذا لما كانت بردعة في زمان ابن حوقل فإنه متقدم التاريخ .. وأما في زماننا فأخبرني من رآها فقال : خربت ولم يبق منها معمورًا إلا دور المعرة في القدر .. "[١٢٤].

هذا مع ملاحظة أن أبي الفدا تعمد أن ينقل وصفه عن بُرْدَعة من أحد شهود العيان بقوله : " أخبرني من رآها "، وهو في نفس الوقت لم يقبل وصف ابن حوقل، حيث أنه متقدم وفي زمن غير زمنه. هذا إن دل على شيء فإنما يدل على منهج أبو الفدا القائم على تحري الدقة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى هذا النحو فإن كتاب تقويم البلدان لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل؛ يعتبر من أهم الكتب الجغرافية، لأنه اشتمل على تحديد دقيق للكثير من البلدان، ووصفها بدقة متناهية، كما ذكر أطوالها وعرضها، كل ذلك بصورة مختصرة وغير مطولة، مما جعل الكثير مِمَّن كتب عن البلدان يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، ومن الأمثلة على ذلك: فإن أبي العباس أحمد القلقشندي، وهو من الكتاب المشهورين في القرن التاسع الهجري /

---

(١٢٢) بَرْدَعة : يقول عنها ياقوت الحموي بلدة في أقصى أذربيجان، ولفظ بردعة أصلها فارسي من كلمة بَرْدة دار، وتعني موضع السبي. انظر : معجم البلدان، نشر : دار صادر، بيروت ١٩٩٨م، ج١، ص٣٧٩-٣٨٠.

(١٢٣) ابن حوقل : صورة الأرض، نشر مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م، ص٢٩٠.

- الكُرج : سكن الكُرج كرجستان وعاصمتها تفليس، وتقع بين بلاد الروم وأرمينية، وهم شعب دان بالمسيحية على المذهب الملكاني، ويصف القلقشندي بلادهم " أنها بلاد جليلة ومملكتهم فخمة، كانت لهم علاقات ومراسلات مع دولة المماليك ". انظر : صبح الأعشى، ج١، ص٣٦٩، ج٤، ص٣٦٢، ج٨، ص٢٧.

(١٢٤) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٤٦٢.

الخامس عشر الميلادي، اعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا عندما تحدث عن البلدان في موسوعته الشهيرة " صبح الأعشى "، وبإحصاء عدد الإحالات التي أحالها القلقشندي إلى كتاب " تقويم البلدان " نجدها بلغت مائتين وثمانين إحالة، خلال أجزاءه المختلفة[١٢٥]، مما يؤكد على أهمية كتاب تقويم البلدان في خدمة علم الجغرافيا على مر التاريخ.

وقد امتدح الكثير من الكُتَّاب والجغرافيين كتاب تقويم البلدان، فعلى سبيل المثال يقول معاصريه ابن أيبك الصفدي(ت ٧٦٤هـ) وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) : " وله كتاب تقويم البلدان، هذَّبه وجدوَّله وأجاد ما شاء "[١٢٦]، ويقول ابن الوردي: " وله كتاب تقويم البلدان، وهو حسن في بابه "[١٢٧].

ويذكر المستشرق الروسي كراتشكوفسكي أن كتاب أبو الفدا " تقويم البلدان " عرفته أوربا مع بداية نهضتها في القرن السادس عشر الميلادي، وترجم إلى اللغة اللاتينية والفرنسية، وكان أساسًا للكثير من الدراسات في علم الجغرافيا في مختلف أنحاء أوربا بعد ذلك[١٢٨].

ومن العرض السابق يتضح لنا أهمية كلٍ من كتاب المختصر في أخبار البشر، وكتاب تقويم البلدان، لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل، حيث أصبح لهما دور كبير في خدمة الحضارة الإنسانية على مر العصور[١٢٩]، كما أن شخصية عماد الدين هي الأخرى، بما تمتع به من خُلق طيب وحب وتقدير للعلم والعلماء، وعدل وإخلاص لأهل مملكته، وإخلاص وتفانٍ في خدمة مليكه وسلطانه "السلطان الناصر محمد"، كل ذلك جعله نبراسًا لمن أتى بعده من الملوك والحكام، لدرجة أن بعض المؤرخين قالوا: أنه لم يتول حكم العالم الإسلامي بعد الخليفة المأمون العباسي أفضل منه[١٣٠].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي ٢٣ شهر المحرم عام ٧٣٢هـ/ ٢٧ أكتوبر ١٣٣١م، وافى الأجل الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا حاكم حماة فجأة، أثناء وجوده بمملكته حماة[١٣١]، فحزن عليه السلطان الناصر محمد حزنًا شديدًا، وعلى الرغم من تطلع العديد من أمراء المماليك لتولي حكم حماة، إلا أن السلطان الناصر، ونتيجة حُبه لأبي الفدا، آثر أن يولي ابنه الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن إسماعيل - حكم حماة، وأصدر في شهر ربيع الآخر من نفس

---

(١٢٥) محمد قنديل البقلي : فهارس صبح الأعشى، القاهرة ١٩٧٠م، ص٦٤٠-٦٤١.
(١٢٦) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.
(١٢٧) تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٤٢٣.
(١٢٨) تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٤.
(١٢٩) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، ج٤، بيروت ١٩٩٣م، ص٤٠-٤٢.
(١٣٠) ابن الوردي : تتمة المختصر، ج٢، ص٤٢٣.
(١٣١) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٩٢؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٢؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج٦، ص٩٩.

العام تقليدًا بذلك[١٣٢]. ويعلق ابن أيبك الدواداري على ذلك بقوله: " وحضر ولده ناصر الدين محمد بن الملك عماد الدين وحصل له من الجبر والصدقة ما هو فوق ما كان في أمله "[١٣٣]. وهذا بالطبع رد من السلطان الناصر محمد، لما كان يكنه لأبيه عماد الدين من محبة وإعزاز.

وقد حفظ القلقشندي نص هذا التقليد، وهو يوضح مدى اعتزاز السلطان الناصر محمد بصداقة عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، ومما جاء في هذا التقليد: "فوجدنا من الحُزن عليه ما أبكى كل سيف دمًا، وأن كل رمح يقرع سنه ندمًا، وتأسفنا على ملك كاد يكون من الملائك، وأخ كريم أو أعز من ذلك، وسلطان عظيم طالما ظهر شنب بوارقه في ثغور الممالك "[١٣٤].

وهنا يؤكد أن الناصر محمد كان يعتبر عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أخًا له أو أعز، وبالفعل كان يكاتبه كما أشار الصفدي بكلمات " أخوه محمد بن قلاوون"[١٣٥].

وقد دُفن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في المقبرة التي أعدها لنفسه عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م، أي قبل وفاته بخمسة أعوام، وذلك قرب مسجد " الحيايا " بمدينة حماة، الذي بناه أيضًا في ذلك التاريخ، ومازال هذا المسجد وتلك المقبرة حتى يومنا هذا موجودة بحماة[١٣٦].

وهكذا كان حال صاحبنا عماد الدين إسماعيل أبو الفدا: الملك العالم في حياته مكرمًا، وبعد مماته أضاء الطريق بمؤلفاته أمام الباحثين والمؤرخين والجغرافيين، جعلها الله في ميزان حسناته، ورحمه الله رحمة واسعة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١٣٢) الذهبي : ذيول العبر، ج٤، ص٩١؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٢.
(١٣٣) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٣٦٤-٣٦٥.
(١٣٤) القلقشندي : صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٥.
(١٣٥) فوات الوفيات، ج٩، ص١٠٤.
(١٣٦) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص٣٩١.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن الأخوة : محمد بن محمد القرشي (ت ٧٢٩هـ) :
  - معالم القربة في أحكام الحسبة، تصحيح روبن ليوي، كمبردج ١٩٣٧م.
- ابن أبي أصيبعة : أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ) :
  - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٨١م.
- ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ) :
  - بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٣م.
- ابن أيبك الدواداري : أبو بكر بن عبدالله (ت ٩٣٠هـ) :
  - كنز الدرر وجامع الغرر :
    - الجزء السابع، المعروف باسم : الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٠م.
    - الجزء الثامن، المعروف باسم: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م.
    - الجزء التاسع، المعروف باسم : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت رويمر، القاهرة ٢٠٠١م.
- ابن أيبك الصفدي : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ) :
  - أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م.
  - الوافي بالوفيات، تحقيق : أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، بيروت ٢٠٠٠م.
- البرزالي : أبو محمد القاسم بن محمد (ت ٧٣٩هـ) :
  - المقتفي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ٢٠٠٩م.
- ابن تغري بردي : جمال الدين يوسف أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ) :
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية د.ت.
  - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠٠٢م.
- ابن الأثير : علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ) :
  - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م.
  - الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٦م.
- ابن الجزري : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت ٧٣٨هـ) :
  - تاريخ حوادث الزمان وأنبائه، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٨٨م.
- ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) :

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

• تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٢م.
- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ) :
• الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م.
- الحنبلي : أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ) :
• شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، العراق ١٩٧٨م.
• صورة الأرض، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.
- ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) :
• وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٧م.
- خواند مير : غياث الدين بن همام الدين (ت ٩٤٢هـ) :
• دستور الوزراء، تحقيق: حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م.
- ابن دقماق : إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ) :
• الانتصار لواسطة عقد الأمصار، نشر مطبعة بولاق مصر ١٣١٠هـ.
• النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٩م.
- الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) :
• سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت ١٩٨٤م.
• تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م.
- رشيد الدين الهمذاني : فضل الله أبو الخير (ت ٧١٨هـ) :
• جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م.
- ابن سباط : حمزة بن أحمد (ت بعد ٩٢٦هـ) :
• صدق الأخبار المعروف باسم: تاريخ ابن سباط، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٣م.
- سبط بن الجوزي : شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ) :
• مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الهند ١٩٥١م.
- السخاوي : شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ) :
• الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عُني بنشره القدسي، بيروت ١٩٧٩م.
- السمحاوي : شمس الدين أحمد (ت ٨٦٨هـ) :
• الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، المعروف باسم: المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا للخالدي، تحقيق: أشرف محمد أنس، القاهرة ٢٠٠٩م.
- ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ) :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

• فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م.
- ابو شامة : عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ) :
• تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم: الذيل على الروضتين، نشر عزت العطار الحسيني، بيروت ١٩٤٧م.
- ابن شداد : بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢هـ) :
• النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، المعروف باسم: سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م.
- الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ) :
• البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع هوامشه: محمد أحمد عبدالعزيز سالم، بيروت ٢٠٠٧م.
- ابن عربشاه : شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ٨٥٤هـ) :
• عجائب المقدور في أخبار تيمور، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، بيروت ١٩٨١م.
- ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ) :
• شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر المكتب التجاري، بيروت د.ت.
- العماد الكاتب الأصفهاني : أبو عبدالله محمد (ت ٥٩٧هـ) :
• الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد صبيح، القاهرة ٢٠٠٣م.
- العمري : شهاب الدين أحمد (ت ٧٤٩هـ) :
• مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق: أيمن فؤاد، القاهرة ١٩٨٥م.
- ابن العميد : الشيخ جرجس (ت ٦٧٢هـ) :
• أخبار الأيوبيين، نشر كلود كاهن Cloud Cahen في :
Bulletin d'etudes Orientales, Paris 1955-1957.
- أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ) :
• تقويم البلدان، نشر مكتبة الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٧م.
- ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرازق (من علماء القرن الثامن الهجري) :
• كتاب الحوادث، المعروف باسم: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: بشار عواد، بيروت ١٩٩٧م. [يتشكك محقق الكتاب في نسبته لابن الفوطي].
- ابن قاضي شهبة : أبو بكر بن أحمد (ت ٨٥١هـ) :
• تاريخه، تحقيق: عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م.
- القرماني : أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩م) :
• أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق: أحمد حطيط، بيروت ١٩٩٢م.
- القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ) :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية، د.ت.

- محمد تقي الدين شاهنشاه : محمد بن تقي الدين عمر (ت ٦١٧هـ) :
  - مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة ٢٠٠٧م.
- المرتضى الزبيدي : أبو الفيض محمد بن محمد (ت ١٢٠٥هـ) :
  - ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٧١م.
- مفضل بن أبي الفضائل : (توفى بعد عام ٧٥٩هـ) :
  - النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر Blochet في : Patrologia Orientales, Paris 1920, Tom 14.
- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) :
  - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نشر مطبعة بولاق مصر ١٢٧٠هـ.
  - الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م.
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م.
- النعيمي : عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ) :
  - الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني، القاهرة ١٩٨٨م.
- النويري : شهاب الدين أحمد (ت ٧٣٣هـ) :
  - نهاية الأرب في فنون الأدب :
    - الجزء ٣١، تحقيق: السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م.
    - الجزء ٣٢، تحقيق: فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م.
- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ) :
  - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب :
    - الجزء الأول، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م.
    - الجزء الخامس، تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٧م.
- ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠هـ) :
  - تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم : تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البنداري، بيروت ١٩٧٠م.
- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ) :
  - معجم الأدباء، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨م.
  - معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٩٩٨م.
- اليونيني : أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ) :
  - ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٧١-٦٧٧)، نشر وزارة التحقيقات، حيدر آباد – الهند ١٩٦٠م.

• ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٩٧-٧١١هـ)، تحقيق: حمزة عباس، أبو ظبي ٢٠٠٧م.

ثانيًا : المراجـــع :

- أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة ١٩٤٥م.
- أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م.
- آمال حامد زيان :

The role of Endowments to The scintific prosperity of Maqdis in Ayyubid Age, International Research Journal of social Sciences, vol I, September 2012.

- حامد زيان :
  - الإسكندرية منارة للعلم في البحر المتوسط عصر المماليك، مقال في كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة ١٩٨٦م.
  - المماليك، التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م.
  - علم التاريخ، القاهرة د.ت.
- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥١م.
- سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك، القاهرة ١٩٧٠م.
- شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت ١٩٩٣م.
- صلاح الدين المنجد : أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، بيروت ١٩٧٨م.
- عبداللطيف حمزة: الحركة الفكرية في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القاهرة ١٩٩٩م.
- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م.
- كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح هاشم، القاهرة ١٩٦٣م.
- محمد قنديل البقلي : فهارس صبح الأعشى، القاهرة ١٩٧٥م.
- محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠م.
- المعجم الوسيط : نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٥م.
- الموسوعة العربية الميسرة، بيروت ٢٠٠٩م.
- وليم ماير : الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة ١٩٧٢م.